الفصل الثاني

اللغة العربية وأشعارُ هُذَيْلٍ

كان الشعرُ الهُذَلي إبان تدوين العربية أهمَّ المثابات وأدقَّ المراجع التي وقف أمامها العلماءُ والأدباءُ وقفةَ التقدير والإجلال والإكبار، فكان المصدرَ الأولَ للألفاظ والمفرداتِ عند اللغويين، والمنبعَ العذبَ في الاستشهاد لقواعدهم وقوانينهم في ميدان الصحة والفصاحة. ولهذا " كانت لغةُ هُذَيْلٍ مثلاً حيّاً في فصاحة اللسان وسعة البيان، وكانت بعيدة دائماً عن المؤثرات الخارجية فاحتفظت بمقوماتها وصحتها وبعدت عن الدخيل[1].

وقد شاعَ الغريبُ في أشعارِ هُذَيْلٍ شيوعاً واسعاً، وظهرت فيها سماتُ البداوة واضحةً، وهذه الغرابة التي نراها في أشعارهم كانت انعكاساً لطبعٍ أصيل، لأن حياة البادية قد ضمنتْ لهم السليقةَ اللغويةَ، والفصاحةَ البيانيةَ وخَلَصَتْ لَهم اللغةُ صافيةً نقيةً، فتزودوا منها بثروة ضخمة من الألفاظ والتراكيب، لأن الغرابة شائعة عندهم شيوعاً واضحاً لا يحتاج إلى دليل، وهي صفة تميز أشعارهم، وسمة من سمات أدبهم الفحل المتين.

وإذا كان الشعرُ الهذليُّ يبدو لأول وهلةٍ جزلَ الكلمات صعبَ العبارات مغرقاً في الغرابة وخاصة في الموضوعات التي يتعرض فيها لوصف الصحراء أو حيوانها فليس مرجعُ هذه الصعوبة إلى المعاني والأخيلة، بل مرجعها إلى الجهل باللغة التي يكثر فيها الغريبُ وتشيع فيها ألفاظُ البادية وأسماء مواضعها وصفات حيوانها. فَإنَّ الدارسَ للشعرِ الهذليِّ يلقي الكثيرَ جداً من أسماء الأماكن والمواضع والأشجار والمياه، ولنقرأ هذين البيتين لساعة بن جُؤَيَّة حيث يقول:

أَضَرَّ بِهِ ضاحٍ فَنَبْطَا أُسَالَةٍ ... فَمَرٌّ فأَعْلَى حَوْزِها فَخُصُورُهَا

فَرَحْبٌ فَأَعْلامُ الفُروطِ فكافِرٌ ... فَنَخْلَةُ تَلَّى طَلْحُها وسُدُورُهَا [2]

---

(١) شعر الهذليين للدكتور أحمد كمال زكي ص ٣١٣.

(٢) ديوان الهذليين ٢/٢١٣ وحاشيته.

فضَاحٍ ونَبْط وأُسالَة وَمرٌّ وحَوْزٌ ورَحْب والقُروط وكافر ونخلة كلها أسماء أماكن ومواضع[1].

وقد أشار ابنُ قتيبة إلى كثرة أسماء الأماكن والمواضع والأشجار والمياه في الشِّعْرِ الهذليِّ، وإلى أهمية السماع والنقل في دراسته، حتى تكون قراءته وفهمه على وجه من الدقة، فقال: " وكل علم محتاج إلى السماع، وأحوجه إلى ذلك علم الدِّين ثم الشعر، لما فيه من الألفاظ الغريبة، واللغات المختلفة، والكلام الوحشيّ وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه، فإنك لا تفصل في شعر الهذليين إذا أنت لم تسمعه بين "شَابَةَ" و "سَايَة" وهما موضعان[2]، ولا تثق بمعرفتك في " حَزْمِ نُبَايع" و "عُرْوَان الكُرَاث" و "شَسَّى عَبْقَرَ" ، و " أُسْدِ حَلْيَةَ، و "أَسَدِ تَرْجٍ" ودُفَاقٍ وتُضَارُعَ" وأشباه هذه لأنه لا يُلْحَقُ بالذكاء والفطنة، كما يلحق مُشْتَقٌّ الغريب.

وقرئ يوماً على الأصمعي في شعر أبي ذؤيب:

بأسْفَلِ ذاتِ الدَّبْرِ أُفْرِدَ جَحْشُها

فقال أَعرابّي حضر المجلس للقارئ: ضُلَّ ضَلاَلُكَ أيها القارئ! إنما هي " ذات الدَّبْرِ وهي ثنَّية عندنا، فأخذَ الأصمعيُّ بذلك فيما بعد"[3].

ولا شك أن كثرة هذه الأسماء للأماكن والمواضع ونحو ذلك تمثل ثروة هائلة للغة العربية، كما أن الغريبَ الذي شاعَ في الشِّعْرِ الهُذَلِيِّ يمثل غنىً فاحشاً لتلك اللغة سواء في زيادة الألفاظ أو في الاعتماد عليه في فهم أساليبها المختلفة المعايير.

والواقع أن علماءَ اللغة – بجميع فروعها – حين كانوا يبحثون عن فصيح الكلام والألفاظ، كانوا لا يثقون إلا بالعرب الفصحاء، وقد وجدوا في أشعارِ هُذَيْل كنزاً زاخراً من كنوز اللغة العربية، يستمدون منه شواهدهم للغريب، الذي ذهبوا يجمعونه من البوادي ليكملوا به دراساتهم اللغوية والأدبية.

---

(١) ديوان الهذليين ٢/٢١٣ وحاشيته.

(٢) الأول بالياء الموحدة: موضع بمكة أو بنجد، والثاني بالياء المثناة: قرية بمكة أو وادٍ بين الحرمين.

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٨٣ تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر ـ ط دار المعارف بمصر ١٩٦٦م.

ولقد سبق أن قررنا أن السببَ الرئيس في جمع الدواوين كلها هو حرص العلماء على تراث الأمة وتاريخها الثقافي، أما شعر هذيل بالذات فيبدو واضحاً أن حرص العلماء على تدوينه يرجع إلى تلك الثروة اللغوية الثرارة التي يتضمنها هذا الشِّعْرُ، الأمرُ الذي دفعَ حركة التدوين العربية طوال القرن الثاني للهجرة إلى النهوض والاتساع.

وهُذَيْلٌ من القبائل المعروفة بفصاحة اللسان وسعة البيان، وهي من القبائل التي أُخذت عنها اللغةُ، فقد كانت هُذَيْلٌ بعيدةً عن المؤثرات الخارجية، وسلمت لغتُها من الدخيلِ، وعُرفت عند القوم بالفصاحةِ والبلاغةِ، ولذلك عُني بها الحفاظُ والعلماء والدارسون في كلِّ العصورِ.

"وقد ظلَّ هذا الشِّعْرُ الهذليُّ منذ تدوين هذه اللغة وهو حقيبة نصوصها وجعبة شواهدها، ومُلْتقَى حفاظها، إليه مرجعُ العلماء في الاستشهاد على صحة المفردات، وعليه يعتمد الأئمةُ في تفسيرِ ما التبس من محكمِ الآيات، فقد كانوا لشدة عنايتهم بهذه اللغة الكريمة وحرصهم على بقاء بِنْيَتِها صحيحة لا يستشهدون على سلامة تعابيرهم، بما تنطق به عامة قبائل العرَب، وإنما كانوا يخصُّون ولا يعمُّون"(١).

ولقد شاع بين العلماء أن أفصحَ العرب هم الذين نُقِلَتْ عنهم اللغةُ من بين قبائل العرب وهم: قيس وتميم وأَسَد وهذيل وبعض كِنانة وبعض الطائيِّين، وقد بيَّن أبو نصر الفارابي(٢) السبب في أنهم اقتصروا على تلك القبائل في جمع اللغة فقال: " كانت قريش أجود العربِ انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانةً عما في النفس.

والذين عنهم نُقلت اللغة العربية وبهم اقْتُدي، وعنهم أُخذ اللسان العربيُّ من بين قبائل العرب هم: قيس، وتميم، وأَسَد، فإن هؤلاء هم الذين أُخِذَ عنهْم أكثر ما أُخِذَ ومعظمه، وعليهم اتُّكِلَ في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هُذَيْل وبعض كِنانة، وبعض الطائيِّين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم"(٣).

---

(١) مقدمة القسم الثالث من ديوان الهذليين للأستاذ محمود أبو الوفا، مع بعض التصرف.

(٢) هو الإمام إسماعيل بن حماد الجوهري صاحب الصحاح وأصله من "فاراب" انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/ ٢٩٥، وبغية الوعاة للسيوطي ١/ ٤٤٦.

(٣) المزهر للسيوطي ١/ ١١٢، والاقتراح في أصول النحو للسيوطي ص١٩.

أما القبائلُ التي عُرِفَ عنها الاختلاطُ أو كانت لها صلةٌ بغيرِ العرب، فقد عزف العلماءُ والرواةُ عن الوثوق بلغتهم، فلم يأخذوا من لَخْمٍ وجُذامٍ لمجاورتهم أهل مصرَ، ولا من قُضاعة وغَسَّان وإياد لمجاورتهم أهل الشام، ولا من بكر لمجاورتهم الفرس، ولا من عبد القَيْس وأَزْد عُمان لأنهم كانوا في البحرين مخالطين الهنود والفرس، ولا من أهلِ اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة.

قال أبو نصر الفارابي: " وبالجملة فإنه لم يؤخذْ عن حَضَرِيٍّ قطُّ، ولا عن سكان البَراري، من كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لَخْم، ولا من جُذام، لمجاورتهم أهل مصر والقِبْط، ولا من قُضاعة وغَسّان وإياد لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية، ولا من تغلب واليمن، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ولا من عبد القَيْس وأَزْدِ عُمان، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهلِ الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغةَ صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم، وفسدت أَلْسنتُهم، والذي نقل اللغةَ واللسانَ العربيَّ عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيَّرها علماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب"(١).

وهكذا كانت هُذَيْلٌ عند العلماء وأئمة اللغة إحدى جهات ست لا يُقْتَدَى إلا بها، ولا تُؤخذ اللغةُ إلا عنها. فإذا عرفنا إلى هذا أن قيساً وتميماً وأسداً إنما كان يُعْتَمَدُ عليهم في الغريب وفي الإعراب وفي التصريف ـ كما نفهم هذا من نصِّ الفارابي ـ استطعنا أن نلاحظ أنَّ هُذَيلاً كانت أولى القبائل التي يُقْتَدى بها ويعتمد عليها في فصاحة اللسان، وسعة البيان، وروعة الأساليب.

---

(١) المزهر للسيوطي ١ / ٢١١، والاقتراح للسيوطي ص٢٠.

وواضح أن في هذا الكلام شيئاً من الخلخلة التي تثير التساؤل مثل العبارات "لمجاورتهم أهل مصر والقبط " فإنهم هم هم، و " وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية" إذ المعروف أنها لغة اليهود، أما النصارى فكانوا يتكلمون السريانية، و" فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان" إذ إن تغلب واليمن بعيدون جداً عن اليونان، و "ولا بكر لمجاورتهم للقبط والفرس" إذ إن الفرس والقبط بعيدان عن الجزيرة جداً. والذي أرجحه أن هذه العبارات نقلت عن الفارابي دون دقة.

ولئن سبقت قريشٌ بأنها كانت أجودَ العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وانقاءً لأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانةً عما في النفس فقد كانت هذيل لاحقةً بها في هذا السبيل أو تكاد، ولا عجبَ في ذلك فهي تمتُّ إلى قريش بصلة النسبِ والمصاهرة والجوار. فإذا كانت قريش تقطن مكة وهُذَيْلٌ تقطن حولها أو قريباً منها، فلا عجبَ إذن أن يكون القرشيون والهذليون في الفصاحة والبلاغة قسماء، كما كانوا في الجوار والدماء أقرباء.

فامتازت هذيلٌ بالفصاحة والبلاغة، ولا شك أنها كانت معروفة عند القوم بفصاحة اللسان وسعة البيان، وسلامة اللغة، وروعة الأسلوب، وجمال الأداء، ولعله من أجل ذلك قال عثمان بن عفان وهو يكتب المصاحف: اجعلوا المُمْلِي من هذيل والكاتب من ثقيف(١).

والواقع أن لغةَ الشِّعْرِ الهذليِّ أقربُ إلى فطرة اللغة العربية، وأصدقُ تمثيلاً لها، إذ هي صادرة من منابعها الأولى، من البادية، وذلك قبل أن تؤثِّرَ فيها تلك التيارات الاجتماعية وغير الاجتماعية التي تؤثر في اللغات. ولست أَدَّعِي أن لغة سائر الشعراء الجاهليين لا تمثل فطرة اللغة العربية، ولكن الذي أُقَرِّره هو أن لغةَ الشعراء الهذليين أقربُ إلى فطرةاللغة العربية وأصدقُ تمثيلاً لها من سائر الشعراء الجاهليين.

ولقد اعتمد المفسرون كثيراً على الشِّعْرِ الهُذَلِيِّ في تفسير ألفاظ القرآن وآياته الكريمة، فالقرآن قد نزلَ بلغة العربِ وعلى أساليبهم في كلامهم، وألفاظه عربية إلا ألفاظاً قليلة عُرِّبت وأُخذت من اللغات الأخرى(٢) ولكن هضمتها العربُ وأَجْرت عليها قوانينها، وأساليبه هي أساليب العرب في كلامها، ففيه الحقيقةُ وفيه المجازُ وفيه الكناية... إلخ، فهو على نمط العرب في حقيقتهم ومجازهم وسائر أساليبهم، وهذا طبعي لأنه أتي يدعو العربَ ـ أولاً ـ إلى الإسلام، فلا بد أن يكون بلغة يفهمونها، قال تعالى: ﴿ **وما أَرْسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه لِيُبَيِّنَ لهم** ﴾ [إبراهيم: ٤].

وكان المفسرون من الصحابة والتابعين ينتهجون منهجاً خاصاً يتلخص في الاسترشاد بحديثِ رسولِ الله ﷺ، وبروح القرآن، وبالشِّعْرِ العربي والأدبِ الجاهلي

---

(١) المزهر ١/ ٢١١.

(٢) انظر فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ١٩٥.

بوجهٍ عامٍّ، ثم عادات العرب في جاهليتها وصدر إسلامها وما قابلهم من أحداث، وما لقي رسولُ الله من عداء ومنازعات، وهجرة وحروب[١].

فقد رُوي عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ يقصد قوله تعالى: ﴿**أو يأخذهم على تَخَوُّف**﴾[النحل: ٤٧] فسكتوا. فقام شيخ من هُذَيْلٍ: فقال: هذه لغتنا، التخّوف: التنقص. فقال: هل تعرف العربُ ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعرُنا أبو كبير يصف ناقتَه:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامكاً قَرِداً كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

والتامك من الناقة: هو المرتفع من السنام، والقرد: المتلبد بعضه على بعض، والسفن: المِبْرَد، والنبعةُ: شجرة تتخذ منها السهام.

ومعنى البيت: أن سنام هذه الناقة قد بَراهُ الرَّحْلُ، كما يَبْرِي المِبْرَدُ العودَ من هذه الشجرة.

فقال عمرُ لما سمع بيتَ الهذليّ: عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شِعْرُ الجاهلية، فإن فيه تفسيرَ كتابكم ومعاني كلامكم[٢].

وكان ابنُ عباس حريصاً على الشِّعْرِ الجاهليِّ يحث الناسَ على تعلمه وطلبه لتفسير القرآن، ومما قاله في ذلك: "إذا سألتم عن شيءٍ من غريب القرآن، فالتمسوه في الشِّعْرِ، فإنَّ الشعرَ ديوان العرب"[٣] والأخبار عن معرفة ابن عباس بالشعر الجاهلي وروايته إياه، وحضه على طلبه وتعلمه،وتفسير كتاب الله تعالى به، أخبار كثيرة[٤].

ومن ذلك ما كان بينه وبين نافع بن الأزرق، فكان ابنُ عباسٍ يُسأل فيجيب، ويؤيدُ كلامَه بمأثور الشعر، وفصيحِ الكلام، ولقد سأله نافعُ بن الأزرق ونجدة بن عُويمر عن مسائلَ كثيرة في التفسيرِ واشتراطا عليه أن يؤيد كلَّ كلمة بشاهد من كلام العرب، فكان ابنُ عباس عند شرطهما، وقد استشهد بالشعر الهذلي في عدة مواضع.

---

(١) أثرُ القرآن في تطور النقد العربي د. محمد زغلول سلام ص ٣٢.

(٢) مصادر الشعر الجاهلي د. ناصر الدين الأسد ص١٥٢ ومع القرآن للباقوري ص٨٩.

(٣) المزهر للسيوطي ٢/٣٠٢.

(٤) انظر الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/١١٩ -١٣٢ ط ٣ مصطفى الحلبي سنة ١٩٥١م.

وهذه المسائل نقلَها السيوطي في كتابه" الإتقان في علوم القرآن" وقد ذكر فيه قول ابن عباس: إذا سألتوني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب(١).

قال السيوطي: "وأوْعَبَ ما رويناه عنه، مسائل نافع بن الأزرق. وقد أخرجَ بعضَها ابنُ الأنباري في كتاب "الوقف" والطبراني في "معجمه الكبير" وقد رأيتُ أن أسوقها هنا بتمامها لتستفاد" وبدأ فساق السندَ فيها مرفوعاً إلى حميد الأعرج وعبدالله بن أبي بكر بن محمد عن أبيه قال: "بينا عبدُ الله بن عباس جالس بفناء الكعبة وقد اكتنفه الناسُ يسألونه عن تفسيرِ القرآن. فقال نافع بن الأزرق لنجدةَ بن عُوَيْمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علمَ له به. فقاما إليه فقالا له: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقه من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزلَ القرآن بلسان عربيٍّ مبين. فقال ابن عباس سلانِي عما بدا لكما"(٢).

ومضى السيوطي فنقل هذه المسائل مع جواب ابن عباس عن كلٍّ مسألةٍ منها، وشاهده من الشِّعْرِ، وعدد هذه المسائل في الإتقان ثمانٍ وثمانون ومئة مسألة ونفهم من قول السيوطي في آخرها أنه حذف منها بضعة عشر سؤالاً، وأنها وصلت إليه في نحو مائتي مسألة. قال: "هذا آخر مسائل نافع بن الأزرق، وقد حذفتُ منها يَسيراً، نحو بضعة عشر سؤالاً، وهي أسئلة مشهورة أَخْرَج الأئمةُ أفراداً منها بأسانيد مختلفة إلى ابن عباس...الخ"(٣).

والذي يهمنا هنا أن نذكر أن ابن عباس استشهد في عدَّة مواضع من هذا المسائل بالشعر الهُذَلي على تفسير غريب القرآن. ومن أمثلة ذلك أنَّ ابنَ الأزرق سأله عن كلمة "أمشاج" في قوله تعالى: ﴿**إنا خلقنا الإنسان من نُطْفَةٍ أمشاجٍ نَبْتَليه فجعلناهُ سميعاً بصيراً**﴾ [الإنسان: ٢]. فقالَ ابن عباس: "اختلاط ماء الرجل وماء المرأة إذا وقع في الرحم" فلما سأله: وهل تعرف العربُ ذلك؟ أجاب: نعم، أما سمعت قول أبي ذؤيب:

---

(١) المرجع السابق ١/١١٩.
(٢) المرجع نفسه ١/١٢٠.
(٣) المرجع نفسه ١/١٣٣.

كـأنَّ الرِّيشَ والفُوقيَّ منـــه خِلاَل النَّصْلِ خالطَهُ مَشـيْجُ(١)

وهذه الكلمةُ وحيدة في القرآن صيغةً ومادة" وتفسير أمشاج، بما نقلنا من قول ابن عباس هو من قبيل الشرح والتوضيح، وأصلُ المشج الخلطُ ينشب فيه المخلوط بعضه ببعض. وقال: "الراغب" في أمشاج: أخلاط من الدم.

واكـتـفى " أبو حـيـان" بأخـلاط، ونقل في " النهـر" على هامش " البـحـر" (٨ / ٣٩٢) تفسير ابن عباس، كالذي في " الإتقان" وقال ابن الأثير: المشيج المختلط جـمـعـة أمـشـاج. ومنه حـديث "عليّ" رضي الله عنه: ومـحط الأمـشـاج من مـسـارب الأصلاب. يريد المَنِيَّ الذي يتولد منه الجنين"(٢).

وقال السُّكَّرِيُّ في شرح البيت: مُشِجَ مَشْجاً: خُلِطَ خَلْطاً، وإنما يريد أنه نَفَذَ في الرَّمِيَّةِ حتى أصابَ الفوقَ والريشَ الدمُ(٣).

ولا يخفى أن جميع هذه الأقوال متقاربة، وهي ترجع إلى معنى الاختلاط كما ورد في قول الهذلي.

ومن أمثلة ذلك أيضاً: أن ابن الأزرق سأل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿**لا ترجون لله وقاراً**﴾ وهو من خطاب نوح لقومه في قوله تعالى: ﴿**مالكم لا ترجون لله وقاراً، وقد خلقكم أطواراً**﴾ [نوح: ١٣-١٤].

فقال ابن عباس: لا تخشون لله عظمة، واستشهد بقول أبي ذؤيب:

إذا لسعتْهُ النحلُ لم يَرْجُ لسْعَها وحالفَهـا في بيتِ نُوبٍ عواملِ(٤)

---

(١) الاتقان ١ / ٢٢١ والذي في كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٦١٩ أن البيت للداخل بن حرام وروايته:

كأنَّ الرِّيشَ والفُوقَيْنِ منـه خِلافَ النَّصْلِ سِيطَ به مَشيجُ

على أنه في زيادات كتاب شرح أشعار الهذليين ٣ / ١٣٠٧ يُنسب لأبي ذؤيب.

(٢) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق للدكتورة بنت الشاطئ ص٣٠٦ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١م.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٦١٩.

(٤) الاتقان ١ / ١٣٢ وهو مروي في كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ١٤٤ لأبي ذؤيب.

obeikandi.com

وذكرت الدكتورة بنت الشاطئ أن في القرآن فعلَ الرجاء مضارعاً إحدى وعشرين مرة وفعل أمرٍ مرةً واحدةً، ومرة كذلك اسم مفعول: مرجُوّوُن. وأن من الواضح أن السؤال يتجه إلى الكلمة في آية نوح وحدَها لخصوصيته في معناها، إذ يجيء الرجاءُ في سائر مواضعه الأخرى، بمعناه المتبادر المألوف، من الطلب والأملِ والتعلق بالمرْجو وأن "تفسيره بالخشية،تقريب لا يمنع دلالة الرجاء. وقد قال فيه" الراغب" قيل: لا تخافون ـ وأنشد بيت أبي ذؤيب ـ ووجه ذلك أن الرجاء والخوف يتلازمان، لأن من يرجو الشيء يخاف مع ذلك ألا يكون، وبالضد قال تعالى: ﴿ **وترجون من الله مالا يرجون** ﴾ [النساء : ١٠٤]، ﴿ **وآخرون مُرْجَوْنَ لأمرِ الله** ﴾ [التوبة:١٠٦]. وردَّ الراغبُ في "المفردات" الرجاء إلى أصلِ معناه في : أَرْجَتِ الناقَةُ، دنا نِتاجُها، وحقيقته: جعلتْ لصاحبِها رجاءً في نفسِها بقربِ نِتاجها.

على أن الزمخشريَّ ذهبَ في الكلمة إلى معنى الأمل، وعلَّق الوقارَ بالمخاطَبين بمعنى توقيرهم، فقال في "الكشاف" : لا تأملون له توقيراً، أي : تعظيماً. والمعنى ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب. ووجَّه السياق فقال: و "لله" بيان للموقِّر، ولو تأخر لكان صلة للوقار. يعني بالتأخر وقراً لله.

وجمع "أبو حيان" من الأقوال في التأويل: الرجاء بمعنى الخوف وبمعنى الأمل. فقال أبو عُبيدة وغيره: لا ترجون: لا تخافون، والوقار: بمعنى العظمة والسلطان. والكلام على هذا وعيد وتخويف. وقيل: لا تأملون له تَوْقيراً ، أي: تعظيماً، ونقل عبارة الزمخشري في توجيهه للآية آنفاً ـ وأضاف بعده:

أو: لا تخافون لله حلماً وتَرْكَ معاجلة بالعقاب فتؤمنوا. وقيل: ما لكم لا تخافون لله عظمة. وعن ابن عباس: لا تخافون لله عاقبة، لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب، من: وقَرَ إذا ثبت واستقَرَّ.

وقيل: ما لكم لا تجعلون رجاءكم لله وتلقاءهَ وقاراً، ويكون على هذا منهم، كأنه يقول تؤدة منكم وتمكناً في النظر، لأنَّ الفكر مظنة الخفة والطيش وركوب الرأي.

وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا ترجون لله ثواباً، ولا تخافون عقاباً. وعن ابن عباس: ما لكم لا تعلمون لله عظمة. وعن مجاهد والضحاك: ما لكم لا تبالون لله عظمة، قال قطرب: هذه لغة حجازية، وهذيلٌ وخزاعةُ ومُضَرُ يقولون: لم أرج: لم

أبال(١). وهذا الخلاف بينهم في تأويل الكلمة، شاهد على ما يشق على الصحابة والعلماء من إعطاء كلمة تؤدي السِّرَّ البياني للكلمة القرآنية.

ثم لا نرى بعيداً أن يتعلق الرجاء بالأمل، وبالخوف من فوتِ المرجو وإخلافه، وأن تكون المبالاةُ من ظواهرِ الرجاء، لأنَّ مَنْ يرجو شيئاً لا بُدَّ أن يباليه. أما تأويلها على معنى الرجاء في توقير الله تعالى إياهم، كما ذهب الزمخشري، فنراه من عسر التكَلُّفِ، فضلاً عما فيه من جفوةٍ"(٢).

وقال السكريُّ في شرح البيت السابق: لم يَرْجُ لسْعَها: لم يخَفْ ولم يُبالِها(٣). ولا يخفى أنَّ أكثرَ هذه الأقوال السابقة متقاربة، وهي ترجع إلى معنى الخشية والخوف، وأن مرجعَهم في هذا المعنى هو قولُ الهذلي السَابق إلى غير ذلك من الأمثلة التي وردت في مسائل ابن الأزرق.

وقد كان ابنُ هشام في السيرة حريصاً على الشعرِ الهُذَليّ حين يعرض لتفسير آيات القرآن الكريم، فحين يَعرض لقوله تعالى: ﴿ **ووجدك عائلاً فأَغْنَى** ﴾ [الضحى :٨] يذكر معاني كلمة العائل وهي: الفقير، أو الذي يعول العيال، أو الخائف، أو الشيء المثقِل المُعْيي. ونراه حين يذكر أن العائل تكون بمعنى الفقير يستشهد بقول أبي خراشٍ الهُذَلي:

إلى بيته يَأوِي الضَّرِيكُ إذا شتَا ومُسْتَنْبِحٌ بالِي الدَّرِيسَيْنِ عائِلُ(٤)

وحين يعرض لقوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **أم يقولونَ شاعرٌ نتربَّصُ به ريبَ المنون. قل تَرَبَّصُوا فإنِّي معكُم من المتربِّصين** ﴾ [الطور: ٣٠-٣١].

يقول: المنون: الموت، وريب المنون: ما يريبُ ويعرض منها. قال أبو ذؤيب الهذلي:

---

(١) راجع البحر المحيط في تفسير هذه الآية.

(٢) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق للدكتورة بنت الشاطئ ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ١/ ١٤٤.

(٤) الروض الآنف للسهيلي في شرح السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤١٨ تحقيق وشرح عبد الرحمن الوكيل ـ دار النصر للطباعة سنة ١٩٧٠م.

أمن المنون وريبـــهـــا تتـــوجَّعُ والدهرُ ليسَ بِمُعْتِبٍ من يَجْـزَعُ (١)

وكذلك حين يعرض لقوله سبحانه: ﴿**أَلَمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه**﴾ [البقرة : ١-٢].

يذكر أن المعنى لا شكَّ فيه، ويستشهد بقول ساعدة بن جُؤَيَّة الهذليِّ:

فقالوا عَهدْنا القومَ قد حَصِروا بـه فـلا رَيْبَ أنْ قـد كـانَ ثَمَّ لَحِيمُ(٢)

وذكر أن الريبَ أيضاً يكون بمعنى الريبة، واستشهد بقول خالد بن زهير الهذلي:

كـــأنـني أُرِيبُـــه بِـرَيْب(٣)

وحين يعرض لقوله تعالى: ﴿ **وكَأَيِّنْ من نبيٍّ قَاتَلَ معه رِبِّيُّونَ كثيرٌ، فما وهَنُوا لما أَصابهم في سبيل الله ، وما ضَعُفُوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٦] يذكر أن المعنى وكأيِّن من نبيٍّ أصابه القتل، ومعه ربيون كثير، أي جماعة، فما وهنوا لفقدِ نبيِّهم، وما ضعفوا عن عدوِّهم، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله تعالى وعن دينهم، وذلك هو الصبر والله يحب الصابرين(٤).

وذكر ابن هشام أن واحد الرِّبِّيِّين : رِبِّي ، وقولهم: الرّباب، لولد عبد مناة بن أدّ بن طابخة بن إلياس، ولضبة ، لأنهم تجمعوا وتحالفوا، من هذا يريدون الجماعات. وأن واحدة "الرّباب" رِبَّة وربابة وهي جماعات قداح أو عِصي ونحوها فشبهوها بها. قال أبو ذؤيب الهذلي:

وكـأنَّـهُـنَّ رِبابَـــةٌ وكـــأنَّـــهُ يَسَرٌ يفيض على القِداحِ ويَصْدَعُ(٤)

إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي لا مجال لذكرها هنا: والتي يتضح فيها عنايةُ العلماء والمفسرين بالشعرِ الهُذَليِّ، واعتمادهم عليه حين يعرّضون لتفسير ألفاظِ القرآن وغريبه.

---

(١) الروض الآنف ٤ / ١٨٠.

(٢) الروض الآنف ٤ / ٣٢٥ .

(٣) وروايته في كتاب شرح أشعار الهذليين ١ /٢٠٧ .

يا قومَ ما بالُ أبي ذؤيـب يَمسُّ رأسي ويَشَمُّ ثوبي
كأنَّني أَتَوْتُـهُ بِرَيْـب

(٤) الروض الآنف ٦ : ٦٠ .

ولعل في هذا إشارة إلى أهمية الشِّعْرِ الهُذَلِيِّ والشِّعْرِ الجاهليِّ بوجهٍ عامٍّ في فهم معاني القرآن من ألفاظه وأساليبه. ولعل فيه إنذاراً للذين يقحمون أنفسهم في ميدان التفسير دون التبحر في اللغة والأدب وشعر العرب، ثم ما قد يلحقهم من الحرمَةِ، والوعيد الشديد بالعذاب الأليم. والواقع أن " الذين يتقحَّمون في ميدان التفسير بغير فقهٍ باللغة وإلمام بآدابها وأشعارها، متطفلون على مآدب القرآن، وربما اندرجوا تحت الوعيد الشديد الذي يشير إليه قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: " من قال في القرآن بغيرِ علمٍ فليتبوَّأْ مقعدَه من النار"(١).

وكان الأدباءُ واللغويون يعتمدون على الشِّعْرِ الهُذَلِيِّ في شرحِ غرائبِ اللغةِ ويستشهدون به على معانيها، فكانوا يعرضون له دائماً عندما تغمض عليهم معاني المفردات الغريبة، والواقع" أن شعرَ هُذَيْلٍ كان موضعَ عناية العلماء واهتمامهم، لقد كانت له مكانةٌ رفيعةٌ في نفوسهم فاتخذوه عوناً على ضبطِ اللغة وتدوين خصائصها"(٢).

فهذا الجاحظُ عندما تحدَّث عن الجاهليين وعاداتهم في الاستمطار نراه يستطرد لغوياً في أسماء البقر ويستشهد بالشِّعْرِ الهُذَلِيِّ على ذلك فيقول: يقال بَقَر، وبَقير، وبَيْقور، وباقر. ويقال للجماعة منها: قطيع، وإِجْل، وكُوْر، وأنشد لقيس ابن العَيْزارة الهُذَلي:

فَسَكَّنْتُهُمْ بالقَوْلِ حَتَّى كأَنَّهُمْ ... بَواقِرُ جُلْحٌ أَسْكَنَتْهَا المراتِعُ(٣)

وقال السكريُّ في هذا البيت: إن بواقرَ جمع باقر، وقال أبو عمرو: كأنهم بقر سكنت في المرتع(٤). كما أنشدَ الجاحظ بيتاً آخر لأبي ذؤيب وهو قوله:

ولا شَبُوب من الثِّيرانِ أَفْرَدَهُ ... عن كَوْرِهِ كَثْرَةُ الإغراءِ والطَّرَدُ(٥)

---

(١) مع القرآن للشيخ الباقوري ص ٩٣ ـ المطبعة النموذجية.

(٢) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص ٣٢٨.

(٣) الحيوان ٤: ٤٦٩.

(٤) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢: ٥٩٠.

(٥) الحيوان ٤: ٤٦٩.

وذكر السكريُّ أن الكَوْرَ هو القطيع وقال: " يقال، على آلِ فلان كورٌ عظيم، أي: قطيع من الإبلِ والبقرِ والظباء، وعليهم أكوارٌ من الإبل"(١).

ويذكر الجاحظ أن العقر هو النجدة، واللبّن هو الرِّسل، ويستشهد بقول الهذلي:

لو أنَّ عندي من قُريْم رَجْلاً　　　لَمنعُوني نَجْدةً أو رِسْلاَ (٢)

وهذا البيت لصخر الغي وروايته في أشعار الهذليين:

لو أنَّ حَولْي مِنْ قُريْم رَجْلاَ　　　بيضَ الوُجُوهِ يحملونَ النَّبْلاَ

لَمَنعُوني نَجْدَةً أَوْ رِسْلاَ　　　سُفْعَ الخُدودِ لم يكونا عُزْلاَ (٣)

وذكر السُّكريُّ أن الرِّسْلَ هو اللِّينُ، ونجدةً، أي: شدة، وقال: " أي لمنعوني بأمرٍ شديد، أو بأَمْرٍ هَيّنٍ، بأهونِ سَعْيِهِم أو بأَشَدِّه"(٣) وهذا هو الصوابُ وذلك لأن صخرَ الغيِّ قال هذين البيتين عندما قتله خزاعة مشيراً بهما إلى قوة قومه وبسالتهم الذين تَمَنَّى لو أنهم كانوا معه في هذا الموقف حتى يحموه ويذبوا عنه، سواء كان ذلك بالشدَّة منهم أو كان على هينتهم.

أما العُكْبَرِيُّ فإنَّه يدافعُ عن المتنبي حين أتي بلفظة «حَشْيان» لأنَّ بعضَهم قد أنكر عليه هذا اللفظ، ثم يستشهد بالشِّعْرِ الهذليّ لورودها فيه.

قال المتنبي:

بالواخِدَاتِ وحَاديها وبي قَمَرٌ　　　يَظَلُّ من وَخْدِها في الخِدْرِ حَشْيَانا (٤)

ومعنى " حَشْيان" هو تواتُر النَّفَسِ من تعب ونحوه، وهو أيضاً النَّهَجُ(٥) الذي يعرض للمسرع في مشيته، أو المحتدِّ في كلامه من ارتفاع النَّفَسِ وتواتره، فالمتنبي يقول: إنَّ وخَدَها يزعجه لشدة تَرَفه فيتَتَابَع نَفَسُه، وقال العُكْبُرِيُّ: وأنكر بعض مَن لا يعرف اللغة على أبي الطيب لفظة: حَشْيان" وقال: لم أسمعها، وكأنه لم يسمع قولَ الآخر ـ هو أبو جندب الهذلي:

---

(١) ديوان الهذليين ١/١٢٦.

(٢) البخلاء ص ٢٣٠. تحقيق طه الحاجري ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١م.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ١/٢٨٢.

(٤) ديوان المتنبي ٤/٣٥٢.

(٥) النَّهَجُ ـ بالتحريك ـ تتابع النَّفَس، والفعل كفرح وضرب، ونهج الثوبُ ـ مثلثة الهاء ـ: بَلِي كأنهج.

فَنَهْنَهْتُ أُولَى القومِ عَنْهُم بَضَرْبَةٍ تَنَفَّسَ مِنْها كـلُّ حَشْيانَ مُحْجَرِ(١)

وذكر السُّكريُّ في شرحه لهذا البيت أن الحشيان هو الذي قد امتلأ جوفه نَفَساً من العدْوِ والكَرْب(٢).

على أن كتاب " الأمالي " لأبي علي القالي فيه الكثير جداً من أشعار هُذَيْلٍ ولذلك يُعَدُّ مصدراً هاماً لشعرِ هُذَيل، ولا سيما من ناحية اهتمام علماءِ اللغة في تفسيرِهم وشرحهم للغريب، وللاستشهاد للمفردات من شعرِ العرب. أما كتاب "التنبيه على أوهامِ أبي عليّ في أماليه" لأبي عُبَيْد البكري، فهو كتاب تتبع البكريُّ فيه أبا عليٍّ القاليَّ في أوهامه وأغلاطه في كتاب " الأمالي " وفيه أيضاً الكثيرُ من الشّعْرِ الهذليِّ الذي يستشهدُ به المؤلف في تفسير وشرحِ الغريب. وكثيراً ما يذكر أبياتاً لهُذَيْلٍ استدراكاً على ما ذكره أبو عليٍّ في أماليه لوهمٍ أو خطأ ارتكبه في رواية بيت هُذَليٍّ، أو خطأ وقعَ في ألفاظه أو معانيه.

ولا شكَّ أنَّ كثرةَ أشعارِ هُذَيْلٍ التي وردت في "الأمالي" و "التنبيه" تبين لنا إلى أيّ حَدٍّ اهتم العلماء بأشعارها ممايكشف عن مكانتها عند الأدباء واللغويين، ففي أوصافِ الشيء البالي يستشهد أبو عليٍّ بالشعرِ الهُذَليِّ مرتين فيقول:

الحَشيف: الخَلَقُ، قال الهذليُّ:

أُتيحَ لها أُقَيْدِرُ ذو حَشيفٍ إذا سامَتْ على المَلَقات ساما

وكذلك الدَّرْس والدَّريس، قال المتنخِّل:

قد حالَ دونَ دَرِيسَيْهِ مُؤَوِّبَةٌ نِسْعٌ لها بِعَضاهِ الأرضِ تَهْزِيزُ

وذكر في تفسيرِ البيت أن المُؤَوِّبَةَ ريحٌ تجيء مع الليل، ونِسْعٌ أو مِسْعٌ اسم من أسماءِ الشَّمال(٣).

وفي الكلام على مادة " غور" يرجع أبو عليٍّ إلى قول عبد مناف بن رِبْع الهذليِّ:

ماذا يَغيرُ ابْنَتَيْ رِبْعٍ عَوِيلُهُمَا لا تَرْقُدانِ ولا بُؤسَى لِمَنْ رَقَدَا

---

(١) المرجع السابق ٤/٣٥٣.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ١/٣٥٧.

(٣) الأمالي للقالي ١/٣٨. دار الفكر - بيروت.

وقال: قال أبو نصر: يقال: غارَهُمْ يَغيرُهم إذا مارَهُم، والغيارُ المصدر(١). وذكر السُّكريُّ في شرحه لهذا البيت أنه يقال: خرج فلان يَميرُ أهلَه، وخرجَ يَغيرُ أهلَه وهما سواء والمصدر الغَيْرُ، وذكر قول أبي ذؤيب:

ما حُمِّلَ البُخْتِيُّ عامُ غيارِه عليه الوُسُوقُ بُرُّهَا وشعيرُهَا

وقال: أي: عام ميرَتِه(٢). وذكر السكريُّ كذلك عند شرحه لبيت أبي ذؤيب أنه سمع جماعةً من العلماء وهو بتَدْمُرَ يتصايحون" الغِيارَ" فنظرَ فإذا جَمَّالَةٌ لهم معهم فاكهةٌ قد أَتَوْهم بها(٣).

ويعرض أبو عليٍّ لبيت أبي كبيرٍ الهُذَليِّ وهو قوله:

حَمَلَتْ بهِ في ليلةٍ مَزْؤُدَةٍ كَرْهاً وعَقْدُ نِطاقِها لم يُحْلَلِ

وروى عن الكسائي قوله: جُئِثَ الرجُلُ جَأْثاً فهو مَجْؤُثٌ، وجُثَّ جَثاً فهو مجثُوث وزُئِدَ زُؤْداً وزؤُوداً فهو مزؤُودٌ(٤). وفي نفس الموضع يفسر كلمة " الإفزاز" فذكر أنه قيل: "الإفزاع" وأنشد لأبي ذؤيب:

والدهرُ لا يبقَى على حدَثانه شَبَبٌ أَفَزَّتْهُ الكلابُ مُرَوَّعُ

وقال: الشَّبَبُ والشَّبُوبُ والمُشِبُّ هو المُسنُّ من الثيران، والاستفزاز عندي الاستخفاف وأفزَّتْهُ: استخفته، ومنه قيل لولد البقرة: فَزٌّ، لأن يستخفه كلّ شيء رآه أو أحسّ به(٥).

وقال أبو عليٍّ في تفسير قول المتنخِّل الهُذَليِّ:

عَقُّوا بِسَهْمٍ فَلم يشعرْ بهِ أَحَدٌ ثم اسْتَفَاؤُوا وقالوا حبَّذَا الوَضَحُ

عقَّى بسهم: إذا رمى به نحو السماء لا يريدُ به أحداً، وذكر أنه اجتمع الفريقان للقتال، ثم بدا لأحد الفريقين وأرادوا الصلحَ رَمَوا بسهم نحو السماء، فعلم الفريق الثاني أنهم يريدون الصلحَ، فتراسلوا في ذلك (٦).

---

(١) المرجع السابق: ١ / ٥٩.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٦٧١.

(٣) المرجع السابق ١ / ٢٠٨.

(٤) الأمالي ٢ / ٣٢٠.

(٥) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٦) المرجع نفسه ١ / ٢٤٨.

وذكر البكريُّ أن أبا عليّ لم يعلم معنى التَّعْقِيَة ومذهب العرب فيها، وقال: إن التعقية هي سهم الاعتذار، وروى لأبي العباس ثعلب أن الأعراب قالت: "إن أصلَ هذا أن يُقْتَلَ الرجلُ من القبيلة فيُطَالَبُ القاتلُ بدمه، فتجتمعُ جماعةٌ من الرؤَساءِ إلى أولياء المقتول بديةٍ مكملَةٍ ويسألونهم العفو وقبولَ الدية، فإن كان أولياؤه ذي قوة أَبْوا ذلك، إلاّ قالوا لهم: إن بيننا وبين خالقنا علامةً للأمر والنهي فيقول الآخرون: ما علامتكم؟ فيقولون: أن نأخذ سهماً فنرمي بهِ نحو السماء فإن رَجَعَ إلينا مُضَرَّجاً دماً فقد نُهينا عن أَخْذ الدِّيَة، وإن رَجعَ كما صعد فقد أُمرنا بأخذها" ثم نقل عن ابن الأعرابي قوله: " فما رجع هذا السهم قَطُّ إلا نقياً، ولكنهم لهم في هذا المقال عذرٌ عند الجُهَّال"[1]. وقال البكريُّ: إنَّ هذا هو معنى عَقَّوْا بسهمٍ لا ما ذكره أبو علي، ثم أورد بعد ذلك حائية المتنخِّل التي منها هذا البيت وهي قصيدته التي قالها يهجو ناساً من قومه كانوا مع ابنهِ حجاجٍ يومَ قُتِل، وأخذ في تفسير غريبها.

كما أنشد أبو عليّ لأبي ذؤيب:

......كــأَنَّهُ خُـوطٌ مَــرِيجُ

وذكر أن قوله: "خوطٌ مريجُ" يعني سهماً قد اختلط به الدم[2] وقد استدرك عليه البكريُّ أن هذا البيت للداخل زهير بن حرام الهذليّ من قوله:

وبيضٌ كالسَّلاجِمِ مُرْهَفاتٍ ... كأَنَّ ظُباتِها عُقْرٌ بَعِيجُ
أَطافَ النَّاجِشَانِ بِها فجاءَتْ ... مكاناً لا تَرُوغُ ولا تَعُوجُ
فراغَتْ والتَمَسْتُ بها حشَاهَا ... فَخَرَّ كأَنَّهُ خُوطٌ مَرِيجُ

وقال: عَقْرُ النارِ: مَوْقِدُها، والبعيجُ: أن يبعجَها الموقِدُ بعود، والناجشان: الحائشان اللذان يحوشان الوحش، وخوطٌ مريجُ، أي: غصن يقلقُ من مكانه[3]. وأبياتُ الداخلِ هذه مروية في أشعار الهذليين في قصيدة طويلة له[4] وذكر السكريُّ في قول الشاعر" كأنه خوطٌ مريجُ" كأَنَّ السهمَ خوطٌ، أي: غصنٌ أو قضيب، يقال

---

(١) التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه للبكري ص ٨٠ ـ دار الفكر ـ بيروت.
(٢) الأمالي للقالي ٢ / ٣١٠.
(٣) التنبيه للبكري ص ١٣٠.
(٤) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٦١١.

مَرِج: إذا وقع فَتُرك، ويقال مريج: أي: قَلِقٌ، يقال: "مَرِجَ الخاتمُ في يدي"(١) وهذا هو المعنى نفسه الذي ذكره البكريُّ.

إلى غير ذلك من الأمثلة التي نراها في "الأمالي" للقالي و "التنبيه" للبكريِّ مما يدل دلالةً واضحةً على عناية العلماء والأدباء واللغويين بالشِّعْرِ الهذليِّ الذي يستشهدون به دائماً في تفسيرِ الغريب، ولا شك أن هذا من مظاهرِ عناية اللغويين بالشعرِ الهذليِّ.

والواقعُ أن علماء اللغة وأصحاب المعاجم وجدوا في أشعار هُذَيْلٍ كنزاً لا ينفد من كنوزِ اللغة العربية يستمدون منه الشواهدَ، ويستنبطون من القواعد، فقد ذهبوا يجمعون اللغةَ من البوادي ليكمّلوا بها دراستهم اللغوية. ومن الحقِّ أن الشِّعْرَ الهذليَّ يُعَدُّ سجلاً ضخماً للكلماتِ اللغوية التي نطقَ بها العربُ الأَقحاح في البيئة العربية الخالصة. ولذلك لا نعجب حين نرى "كتب اللغة كلها تستقي من نبع الشِّعْرِ الهُذَليّ،وتكرع من حياضه في شتى المواد"(٢).

ويكفي أن ننظرَ في معجمٍ كلسان العرب لابن منظور لنرى كيف تنتشر فيه الشواهدُ من الشِّعْر الهُذَليِّ على كثير من المعاني التي كان اللغويون يفسرون بها غرائبَ اللغة وشواردها، فقد انتشرت فيه الشواهدُ انتشاراً واسعاً وبعيد المَدى، ففي هذا المعجم وحدَه يتردد اسم أبي ذؤيب وأبياته دون غيره من شعراء هُذَيْلٍ أكثر من ست آلاف مرة(٣).

ومن أمثلة ذلك أنه أورد في مادة " ذبح" بيتاً لأبي ذؤيب في وصف الخمرِ وهو قوله:

إذا فُضَّتْ خواتمُها وبُجَّتْ يقالُ لها دمُ الوَدَجِ الذَّبيحُ

وقال: أراد المذبوح عنه، أي: المشقوق من أجله، ثم أورد بيتاً آخر له وهو:

وسِرْبٍ تَطَلَّى بالعَبيرِ كأَنَّهُ دماءُ ظِبَاءٍ بالنَّحُورِ ذَبيحُ

---

(١) المرجع السابق ٢/٦١٨.

(٢) قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان ٢/١١٩.

(٣) المرجع السابق ٢/١٢٠.

وقال: ذبيحُ : وصف للدماء، وفيه شيئان: أحدهما وصف الدم بأنه ذبيح، وإنما الذبيحُ صاحبُ الدم لا الدم، والآخر أنه وصف الجماعة بالواحد، فأما وصفه الدم بالذبيح فإنه على حذف المضاف، أي كأنه دماءُ ظِباءٍ بالنحور ذبيح ظباؤُهُ، ثم حذف المضاف وهو الظباء فارتفع الضميرُ الذي كان مجروراً لوقوعه موقع المرفوع المحذوف لما استتر في ذبيح، وأما وصفه الدماء وهي جماعة بالواحد فلأن فعيلاً يوصف به المذكر والمؤنث والواحد وما فوقه على صورة واحدة"(١).

ومن الغريب الذي عرض لسان العرب" الإرزيز" وقال: إنه الرِّعدة، وأنشد بيت المتنخِّل الذي يقول فيه:

كأنما بين لَحْيَيْهِ ولَبَّتِهِ من جُلْبَةِ الجوعِ جَيَّارٌ وإرْزِيزُ

على أنه ذكر في مادة "جلب" أن الإرزيز، في هذا البيت معناه الطعنةُ، كما نقل عن ابن بَرِّي في هذه المادة أيضاً أنه الرِّعْدة(٢).

وفي مادة " عرى" ذكرَ بيت أبي كبيرٍ الذي يصف فيه أعداءه:

مُتكَوِّرِينَ على المعارِي بينَهُمْ ضَرْبٌ كتعطاطِ المزادِ الأنجلِ

وفسَّرَ المعارِي بأنها مبادي العظام حيث تُرَى من اللحم، كما فسَّرَها ـ على رأي آخر ـ بأنها الوجه واليدان والرِّجْلان(٣). وأما السكريُّ فيقول عن المعاري: إنها السَّوْءات(٤).

وفي مادة "حقق" ذكر أن المُحْتَقَّ من الطعن: هو النافذ إلى الجوف، وأنشد بيت أبي كبير:

وَهَلاً وقد شَرَعَ الأَسِنَّةَ نَحْوَها مِن بين مُحْتَقٍّ بها ومُشَرَّمِ

ثم قال: أراد من بين طعنٍ نافذٍ في جوفها وآخرَ قد شَرَّمَ جلدَها ولم ينفُذ إلى الجوف. وعبارته في مادة " شرم" : المحتقّ : الذي قد نفذَ السنانُ فيه فقتله ولم يفلت.

---

(١) اللسان مادة " ذبح ".

(٢) اللسان مادتا : "رزز وجلب ".

(٣) اللسان مادة «عرى».

(٤) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/١٠٧٦.

وقال في التشريم: هو أَنْ ينفلتَ الصيد جريحاً، وأنشد هذا البيت أيضاً[١].

وذكر السكريُّ أن المُحْتَقَّ: الذي قد أصيب فاحتَقَّ الرَّمْيةَ، والمُشَرَّم: الذي قد شُقَّ بالعرض يقال: شَرَمَهُ يَشْرِمه شَرْماً[٢].

وفي مادة "رجم" أنشد بيت صخر الغيِّ:

كأَنَّهما إذا عَلَوا وَجِيناً ومَقْطَعَ حَرَّةٍ بَعَثا رِجاما

وقال: إن الرجام حجر يشدّ في طرف الحبل ثم يدلَّى في البئر فتخضخض به الحمأة حتى تثور، ثم يستقى ذلك الماء، وهذا كله إذا كانت البئر بعيدة القعر لا يقدرون على أن ينزلوا فيُنْقُوها. وقيل: هو حجر يشدُّ بِعَرْقُوَةِ الدَّلو ليكون أسرع لانحدارها[٣]. وذكر السكريُّ أنَّ الرجام حجرٌ يجعل في طرف الحبلِ وفي الطرف الآخرِ دَلْوٌ فينخرط انْخراطاً، فالشاعر يقول: إنهما ينخرطان في العَدْوِ[٤].

وفي مادة "شبث" يتحدث عن دابَّة يقال لها: الشَّبَثُ، ويقول في تعريفها: إنها دُوَيْبَّة ذاتُ قوائم ستٍّ طوال، صفراءُ الظَّهْرِ وظهور القوائم، سوداءُ الرأسِ، زرقاءُ العين. وقيل: هي دُوَيْبَّةٌ كثيرةُ الأرجل، عظيمة الرأسُ، من أحناشِ الأرضِ، وذكر أقوالاً غير ذلك، ثم أنشدَ بيتَ ساعدةَ بن جُؤَيَّة الذي يقول فيه:

ترى أَثْرَه في صَفْحَتَيْه كأَنَّه مدارجُ شِبْثانٍ لهُنَّ هَميمُ[٥]

أما السكريُّ فذكر أن الشَّبَثَ دابة تشبه العُقْرُبان، وتكون في المواضع النَّديَّة[٦].

وحين تكلم عن مادة "هضب" ذكر قول صخر الغيِّ:

لَعَمْرُ أَبي عَمْرٍو لقد ساقَه المَنا إلى جَدَثٍ يُوزَى له بالأهاضِبِ

وذكر أن أهاضيب جمع أُهضوبة، وقال: وهي مثل الهَضْب بفتح الهاء وسكون الضاد جمع هَضَبة[٧]. وذكر السكريُّ في تفسيرِ هذه الكلمة ما نصه: وقوله:

---

(١) اللسان مادتا "حقق وشرم".
(٢) ديوان الهذليين ٢ / ١١٥.
(٣) اللسان مادة "رجم".
(٤) ديوان الهذليين ٢ / ٦٤.
(٥) اللسان مادة: "شبث".
(٦) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣ / ١١٦١.
(٧) اللسان مادة "هضب".

"بالأهاضِب" يقال للجبَلِ المُفْتَرِش بالأرضِ ليس بالطويلِ هَضْبَةٌ، وَهَضَبات وهِضَابٌ وأَهاضِبُ وأَهاضِيبُ للجمع(١).

ثم في غير لسانِ العربِ من معاجِم اللغة المطولة كتاجِ العروسِ للزبيدي مثلاً نلاحظ أنه ليس دون صاحبِ اللسانَ عنايةً بالرجوع إلى أشعارِ هُذَيْلٍ مستشهداً بها ومفسراً بوساطتها الغريبَ الذي يعرض له، ونكاد نرى الشعرَ الهذلي في كلِّ صفحةٍ من صفحاته.

ففي المادة الأولى منه وهي مادة" أبأ" يذكر أن الأباءَة كعباءَة هي القصبة أو هي أَجَمَةُ الحَلْفاء والقَصب خاصّةً، كذا قاله ابن بَرِّيٍّ، والجمع أَباءٌ بالفتح والمدِّ. وقال: "وقرأت في مُشْكِلِ القرآن لابن قتيبة في باب الاستعارة قولَ الهُذَليِّ وهو أبو المُثَلَّم:

وأَكْحُلْكَ بالصَّابِ أو بالجَلاَ ... فَفَتِّحْ لِكُحْلِكَ أو أَغْمِضِ

وأَسْعُطْكَ في الأَنْفِ ماءَ الأَبا ... ءِ مما يُثَمَّلُ بالمِخْوَضِ

قال: "الأَباءُ: القَصَبُ، وماؤُه شرُّ المياه، ويقال: الأباءُ هنا الماءُ الذي يبول فيه الأَرْوَى فيشربُ منه العَنْزُ فيمرضُ"(٢) وقال السكريُّ: الأباء هو الأَجمة، وذكر أن ماء الأَباءِ رديءٌ، مكروهٌ(٣).

وفي مادة: "رفأ" تحدث عن رَفَّأَهُ ترفئةً وتَرْفيئاً إذا قال له: بالرِّفاءِ والبنينَ، أي: بالالتئَام والاتفاق والبركة والنماء، وجَمْعِ الشَّمْلِ وحُسْنِ الاجتماع، وعن ابن السكِيت: وإنْ شئتَ كان معناه السُّكون والهُدُوّ والطُّمَأْنينَة، فيكون أصله غير الهمز من قولهم: رَفَوْت الرجلَ إذا سَكَّنْته وعليه قول أبي خِراشٍ الهذليِّ:

رَفَوْني وقالوا يا خُوَيْلِدُ لا تُرَعْ ... فقلتُ وأَنْكَرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

يقول: سكَّنوني، وقال ابن هانِئ: يريد رَفَؤُني فألقَى الهمزَ، والهمزة لا تُلقَى إلا في الشعرِ، وقد ألقاها في هذا البيت، ومعناه أَنِّي فَزِعْتُ فطارَ قلْبي فضمُّوا بعضي إلى بعضٍ(٤). وفي أشعارِ الهذليين أن معنى "رَفَوْني" "سَكَّنُوني" وكأن أصلها "رَفَؤُوني" وقال أبو سعيد: وأهلَ الحجاز لا يهمزون فترك الهمزة"(٥).

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ /٢٤٥.

(٢) تاج العروس مادة: أبأ".

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ /٣٠٧.

(٤) تاج العروس مادة " رفأ".

(٥) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/ ١٢١٧.

وفَي مادة " لبب" ذكر أن المُتَلَبِّب هو المتحزِّم بالسلاح وغيره، وأن كل مُجَمِّعٍ لثيابه متلبِّب، والمتلَبَّبُ ـ بفتح الباء المشددة ـ موضع القلادة ، وتلبَّبَ الرجلان أَخَذ كلٌّ منهما بلَبَّة صاحبه. وفي الحديث أن النبي ﷺ " صلَّى في ثوبٍ واحدٍ مُتَلَبِّباً (به) "(١) والمتلبِّبُ: الذيَ تحزَّم بثوبه عند صدره، قال أبو ذؤيب:

ونَميمَةٍ مـن قانِـصٍ مُتَلَبِّبٍ   في كَفِّهِ جَشْءٌ أَجَشُّ وأَقْطَعُ(٢)

وذكر السكريُّ كذلك أن المتلبب هو المتحزم بثوبه(٢).

وقد يستشهد الزَّبيديُّ في المادة الواحدة بعدة أمثلة من الشعرِ الهذليِّ مستعيناً به في تفسير الغريب، ففي مادة " حلأ " يذكر أن الحَلاَءَةَ كسحابة هيَ الأرضُ الكثيرة الشجر، وقيل: اسمُ أرضٍ حكاه ابنُ دُرَيْد، وليس بِثَبَتٍ قال الأزهريُّ: وقيل : اسم موضع شديد البردِ قال صخرُ الغيِّ:

كأَنِّي أَراهُ بالحَلاَءَةِ شاتِياً   يُقَفِّعُ أَعْلَى أَنْفِـه أُمُّ مِـرْزَمِ

وروي الحُلاءة بالضَم وقال: ويُكْسَر كذلك،ثم قال: والذي قرأتُ في أشعار الهذليين، قال صخرُ بن عبد الله يهجو أبا المُثَلَّم:

إذا هو أَمْسَى بالحَلاءَةِ شاتِياً   تُقَشِّرُ أعْلَى أَنْفِــه أُمُّ مِــرْزَمِ

الحَلاءَة بفتح الحاء وَبالكسر رواية أبي سعيدٍ السكريِّ : مَوضِعُ قُرٍّ وبَرْدٍ، وأم مِرْزَم: الشَّمال، وقد عيره أنه نازل بمكانٍ باردٍ سَوْءٍ .

فأجابه أبو المثلم:

أَعيرتني قُرَّ الحَلاءَةِ شاتِياً   وأنتَ بأَرْضٍ قُرُّهـا غَيْرُ مُنْجِمِ

ثم ذكر أن الحُلاءَة ـ بالضم ـ قِشْرَةُ الجلدِ التي يَقْشـرُها الدَّبَّاغ مما يلي اللحَمَ، والحِلاءَةُ ـ بالكسر ـ واحدةُ الحلاءِ وهي اسم لجبال قُرْبَ ميطانَ لا نباتَ فيها تُنْحَتُ منها الأَرْحِيَةُ وتُحمل إلى المدينة المنورة. وأن الحَلُوءَ ـ كصبور ـ حَجَرٌ يَسْتَشْفَي به الرَّمدُ. ونقل عن ابن السكِّيت أنه قال: الحَلُوء: حَجَرٌ يُدلَكُ عليه ثم تُكْحَلُ به العينُ، قال أبوالمُثَلَّم الهُذَلِيُّ يخاطب عامرَ بن عَجْلان الهُذَلِيَّ:

---

(١) تاج العروس مادة " لبب" .

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٢١ .

obeikandi.com

مـتَى مـا أَشَـأْ غَـيْـرَ زَهْوِ المُلُو ... كِ أَجْـعَلْكَ رهْطاً على حُـيَّضِ

وأَكْـحُلْكَ بالصَّـابِ أَو بالحَلُوءِ ... فَـفَـتِّحْ لِعَـيْنِكَ أَو غَـمِّضِ (١)

أما السكريُّ فذكر أن الحَلُوءَ ـ بالفتح ـ هو أن تأخذ المرأة الدُّهن فتجعلَه على طَسْتٍ أو مرآة أو حديدةٍ، فَتُحَرِّكَهُ حتى تأخُذَ من صَدَئِه ثم تَكْتَحِلُ به، ويزعمون أنه جَيِّدٌ للبصر(٢).

ولا حاجة بنا إلى أن نأتي بأمثلةٍ أخرى توضح عناية الزَّبيدي بالشِّعْرِ الهذليِّ فهو كثير فيه كثرة مفرطة تلفت النظر. والحق أن هذا صورة من عناية اللغويين وأصحاب المعاجم عامة بالشِّعْرِ الهذليِّ، حيث يستشهدون به في تفسير الغريب في شتى المواد اللغوية. ولا شَك أن هذا يوضح تأثيرَ الشِّعْرِ الهُذَليِّ في اللغة العربية، ولا عجبَ في ذلك فهو شِعْرُ البادية، وكلامُ العربِ الأقحاحِ في البيئة العربية الخالصة.

ولقد قام الأستاذ عبد الستار أحمد فراج ـ بمراجعة الأستاذ محمود محمد شاكر ـ بجمع وتحقيق أشعار الهذليين، وإخراجها في " كتاب شرح أشعار الهذليين" وسبق لنا أن تحدَّثنا عن هذا الكتاب وميزاته في الباب السابق.

والذي يهمنا هنا أن نذكر أن الأستاذ عبد الستار فراج قام بعمل معجم لما في كتاب شرح أشعار الهذليين من ألفاظ لغوية وذلك في أواخر الكتاب. ولا شك أنه بهذا العمل قد أضافَ معاني وألفاظاً لم ترد في كتب اللغة، أو وردت في بعضها، وبهذا يظفرُ الباحثون بشواهد شعرية لألفاظٍ لغوية كثيرة، لم تُذكر لها شواهدُ في كتب اللغة.

وقد بدأه على طريقة المعجم وذلك بحرف الهمزة، ومن الجدير ذكرهُ أنه كان كلما ذكر كلمة ذكر رقم الصفحة التي وردت فيها، وكثيراً ما كان يذكر الكلمة واشتقاقها وتصرفها وغير ذلك مما يعدُّ بحقٍّ ثروة لغوية عظيمة يقدرها الباحثون والدارسون.

ويبلغُ فهرس اللغة هذا ما ينيفُ على ثلاثين ومائة صفحة من الحجم الكبير ويحتوي على الآلاف من الكلمات اللغوية المكونة من الموادِّ وما يشتق منها، أو ما يدور حولها، وقد قمتُ بإحصاء تلك الكلمات اللغوية في هذا المعجم فبلغت ما يزيد على عشرين ألف كلمة.

---

(١) تاج العروس مادة " حلأ " بتصرف.

(٢) كتاب أشعار الهذليين ١ / ٣٠٧.

ولا بأس أن نُمثل هنا بأمثلة من هذا المعجم حتى تتضح فائدته، ويتبين ما فيه من ألفاظ لغوية في الشِّعر الهذليِّ التي تعد ثروة هائلة للغة العربية.

ففي مادة " أبل" يقول: " أَبِلَت تأْبُل أُبولاً، إِنَّ في أرضكم لأبولاً يُجْتَزَأُ به من نبت ، الأُبَّلَةُ، أتَأَبلُ، رجل ذو إِبالة، إِبَّالة"(١).

وفي مادة " ألف " يقول: تُؤْلفُ الجوارَ ، آلفَ وأَوْلَفَ، آلفت الإِبلُ، الإِيلاف، المأْلَف، أُلوف، أَلْف، إِلْف، آلف، الأُلوف، آلافٌ، آلافُه، بَعَثْها أُلأَفُها، أَلِفَ، تَأْلَف، تُؤْلِف، أَلِفْتُ الشيءَ وآلفْتُه، أَلَّفَ ، آلفوا ، خَلَّفوا الإِيلاف"(٢).

وفي مادة " شجر" يقول: "تشاجَرا، اشْتَجَر عليَّ الهمُّ ، شجرهُ الشيءُ يَشجُرُهُ شَجْراً، شجَر على يده، شَجَرَتْه الرِّماحُ، شاجِرٌ، الشَّجْر، المُشْتَجِر، شَجيرُها، مُشْتَجِرات، المَشَاجِرُ، مِشْجَرَةٌ، شُجِرَت الدابَّةُ، شُجِرَتْ بها"(٣).

وفي مادة " صرخ" يقول: " الصَّارخ، الصَّريخ، صَرَخَ، يصرخ، اصْرُخْ لي بفلان، قمنا حين صَرَخ الديك، الصُّراخ، اصْطَرخنا"(٤).

وفي مادة: "قمر" يقول: "قَميْرٌ، مَقْمُور، قُمرَ، قَمْرُهُ، قَمْرَةٌ، القُمْرِيُّ،القَمْرَاء، ليلةٌ مُقْمِرة، أَتان قَمراء، أَقْمَرُ،اقْمَارَّت، مُزُنٌ قُمْرٌ، القُمْر، القَمَرُ اللِّياحِ "(٥).

وفي مادة" يمن" يقول : يَمانِيَة، يَمانِينًا، فلان عندي باليَمين، اليامِن مُتَيامِنٌ، يمانٍ"(٦).

إِلى غير ذلك من الأمثلة التي لا مجال لذكرها هنا، هذا مع ملاحظة أنه وضع بجوار كل كلمة من المعجم رقم الصفحة التي وردت فيها، حتى يكون ذلك عوناً للباحثين للوصول إِلى مطلبهم.

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/١٥٢٣.

(٢) المرجع السابق ٣/١٥٢٥.

(٣) المرجع نفسه ٣/١٥٧٨.

(٤) المرجع نفسه ٣/١٥٨٥.

(٥) المرجع نفسه ٣/١٦١٩.

(٦) المرجع نفسه ٣/١٦٥٥.

ولعله قد اتضح بعد هذا العرض السريع لما في هذا المعجم من الألفاظ اللغوية وتصرفاتها، أنه يعد ثروة هائلة للباحثين في اللغة العربية، ثم إنه قد يكشف عن مدى أثر الشِّعْرِ الهذليِّ في اللغة العربية، وذلك بما يتضمن من آلاف الألفاظ اللغوية، فلا شك أن هذا المعجم يَعدُّ ثروةً عظيمةً للغة والأدب، وعمل جِدّ جليل في خدمةِ تراث العرب.

obeikandl.com